أزمة فاشـــودة

١٨٩٨

يعتبر المؤرخون الاحتلال البريطانى لمصر ، والثورة المهدية ، وفشل جوردون ونهايته ، وإخلاء السودان فى سنة ١٨٨٥ حوادث مهمة جداً بالنسبة لشيئين : أولهما بالنسبة للعلاقات السياسية الكبرى فى أوربا نفسها ، وثانيهما بالنسبة لحركة الاستعمار عامة وفى إفريقية بصفة خاصة .

ولأضرب مثلا على تأثيرها فى السياسة الأوروبية : إن أهم حقيقة فى تاريخ العلاقات السياسية الكبرى قبل الحرب العالمية الأولى كانت الحقيقة التى تولدت عنها المحالفات الكبرى ، وهى حرب فرنسا وألمانيا سنة ١٨٧٠ واستيلاء ألمانيا على الألزاس واللورين ، وتصميم فرنسا على استرداد ذلك الجزء فى يوم من الأيام . ترتب على ذلك تحرك الدول نحو تنظيم المحالفات . فابتدأ بين فرنسا وروسيا التقارب الذى انتهى بالمحالفة الروسية الفرنسية ، على اعتبار أن ألمانيا عدو مشترك للدولتين فى وسط أوربا ، أما ألمانيا فجمعت إليها الإمبراطورية النمساوية وإيطاليا . وكانت الإمبراطورية النمساوية تعتمد على ألمانيا ، لأنها كانت لها آمال ومطامع فى البلقان ، وتخشى امتداد النفوذ الروسى فى هذه المنطقة . أما إيطاليا فكانت حليفاً ثالثاً غير موثوق به كل الوثوق لأنها كانت لها مصالح فى أوربا الوسطى من جهة ، ومن جهة أخرى كانت تحب مصالحة الدول البحرية كانجلترا وفرنسا . الذى يهمنا من هذا هو أثر احتلال مصر ومشروعات تقسيم إفريقية فى علاقات الدول الأوروبية بعضها ببعض ، من حيث أن هذه المسائل من ناحية تُبعد بين الدول ، ومن ناحية أخرى تستخدم فى سبيل الغايات الأوروبية نفسها . فكانت أول نتيجة لاحتلال انجلترا لمصر أن فرنسا ساءتها تلك النهاية ، وأن هذا أوجد جفوة بين الدولتين

الغربيتين ، وأن بسمرك استخدم هذا ليحول دون أى تقارب بين الكتلة الروسية الفرنسية وإنجلترا ، وعمل طوال مدته على تأييد الاحتلال الإنجليزى لمصر . وأفاد بذلك إنجلترا كثيراً ، لأن فرنسا كلما أثارت صعوبات أمام الاحتلال الإنجليزى ، يأتى التأييد الألمانى ويفسد كل تلك الصعوبات . ثم تستخدم السياسة الألمانية تأييدها لإنجلترا كوسيلة لتحقيق أهداف معينة ، كجعل إنجلترا تبتعد عن فرنسا ، وكحمل الإنجليز على التسليم بمشروعات ستعمارية ألمانية فى إفريقية .

أما عن تأثير تلك الحوادث التى ذكرتها ، وهى الاحتلال البريطانى لمصر والثورة المهدية وفشل جوردون ونهايته وإخلاء السودان ، فى تقسيم إفريقية ، فالكلام فيه له وجهان : الوجه العام ، وهو المتعلق بمسائل الدول المختلفة لاقتطاع أجزاء من إفريقية ، ويمكننى أن أقرر أنه تم فى العشرين سنة الأخيرة من القرن التاسع عشر وضع الخطوط الرئيسية للخريطة الإفريقية ، وأن هذه المدة تعتبر عصر تقسيم إفريقية ، الذى التهمت فيه أراضى القارة الالتهام المعروف . وكان هذا بموجب عمليات دبلوماسية دقيقة ، متصلة أكبر الاتصال بالدبلوماسية الأوروبية العالمية فى ذلك الوقت . والدول التى اشتركت فى التقسيم كانت إيطاليا وبلجيكا وفرنسا وألمانيا وإنجلترا . أما عن الوجه الخاص وهو المتعلق بمنطقة أعالى النيل نفسها ، فقد همت تلك الدول ، بالإضافة إلى الحبشة ، بأن تصل إليها ، أى أن كل مسعى لهذه الدول فى التقدم من سواحل إفريقية كان للوصول إلى أعالى النيل . وعلى هذا الأساس عند ما أعلن إخلاء السودان ، وتُرك لعوامله الداخلية بعد سقوط الخرطوم ، اعتبرته هذه الدول كلها — ما عدا انجلترا طبعاً — أرضاً بلا صاحب ، وحاولت الزحف نحو تلك الأرض . وإنجلترا كان أملها أن تمنع ذلك الزحف ، لأنها كانت تريد أن تكون هى الوريثة عندما تحين لها الفرصة لتحقيق ذلك ، فكانت سياستها مقاومة كل من يعترض سبيلها فى إتمام مشروع تأسيس

إمبراطورية من البحر المتوسط إلى رأس الرجاء الصالح ، وأن تحول دون أية دولة والاستيلاء على منطقة أعالى النيل ، فهى حجر الزاوية للقبو العظيم الذى تستند عليه الإمبراطورية الإفريقية . كما أنها كانت تريد منع وقوع أعالى النيل فى أيدى دولة أوروبية فتهدد مصر وهى صاحبة الشأن فيها . لذلك أصبحت حماية أعالى النيل أحد مفاتيح السياسة البريطانية فى إفريقية .

من الممكن الهجوم على أعالى النيل من اتجاهات مختلفة : من البحر الأحمر ، ومن ساحل إفريقية الشرقى ، ومن الكنغو . وقد سهلت إنجلترا للدولة لا تخشى بأسها ، وهى إيطاليا ، الاستقرار فى بعض أقاليم غربى البحر الأحمر فأعطتها مصوع ، وشجعتها على تأسيس مستعمرة إريتريا وإرسال حملات علمية وتجارية إلى إقليم هرر ، كما سمحت لها باحتلال كسلا مؤقتاً . ثم عقدت معها فى سنتى ١٨٩١ ، ١٨٩٤ اتفاقات نصت على اعترا ف بريطانيا بدائرة نفوذ إيطالية تمتد من ساحل إريتريا ، وتشمل جميع الحبشة ، وتنتهى على ساحل المحيط الهندى بما فيها الصومال الإيطالى . والمهم أنه روعى فى رسم حدود هذه المنطقة أن تكون بعيدة عن وادى النيل ، وفى الوقت نفسه تقف سداً ضد أية محاولة للفرنسيين للتوغل غرباً من الصومال الفرنسى ؛ وهكذا اتبعت بريطانيا فى منطقة غربى البحر الأحمر سياسة تحول دون هجوم فرنسا وإيطاليا والحبشة على أعالى النيل من هذه الناحية .

وفى ساحل إفريقية الشرقى اتبعت إنجلترا سياسة انتهت بتقسيم هذه المنطقة مع ألمانيا بمقتضى معاهدة بين الطرفين فى سنة ١٨٩٠ ، وباحتلال إنجلترا لأوغندة وإعلان حمايتها عليها فى سنة ١٨٩٤ .

وفى الغرب ، كما فى الشرق ، أرادت الحكومة البريطانية اتخاذ احتياطات لحماية أعالى النيل من الاعتداء ، فعقدت مع ألمانيا معاهدة فى نوفمبر سنة ١٨٩٣ تسمح للممتلكات الألمانية فى الكمرون بأن تمتد شمالا حتى بحيرة تشاد ، وشرقاً فى حدود دولة الكونغو ، بحيث تكون بعيدة عن أعالى النيل . وكانت

إنجلترا ترى من ورائه ذلك إلى قطع الطريق على امتداده المناطق الفرنسية إلى النيل . ولكن فرنسا استطاعت أن تحقق مع ألمانيا فى ماوس سنة ١٨٩٤ على تحديد الحد الشرقى للكمرون ، بحيث تركت لفرنسا الحرية فى التوسع شمالا حتى بحيرة تشاد وشرقاً كما تريد . وبذلك أعطت ألمانيا لفرنسا ما أخذته من انجلترا قبل ذلك بثلاثة أشهر ، فاتجهت إنجلترا إلى ليوبولد ملك بلجيكا ، وعقدت معه اتفاقاً فى مايو سنة ١٨٩٤ ، تنص المادة الثانية منه على تأجير منطقة بحر الغزال إلى ليوبولد ، وذلك لمنع الفرنسيين من التقدم إلى أعالى النيل من ناحية الغرب ، وتنص المادة الثالثة على أن يؤجر ليوبولد إلى بريطانيا ممراً عرضه ١٦ ميلا وطوله ١٨٨ ميلا ، ويمتد من بحيرة تنجانيقا إلى بحيرة ألبرت ادوارد . وهذا الممر كانت تريده إنجلترا ، لأنه كان حلقة اتصال هامة فى المشروع المشهور بالخط الحديدى من الكاب إلى القاهرة . احتجت فرنسا وألمانيا على هذا الاتفاق ، فاضطرت بريطانيا وبلجيكا إلى التراجع وأعلنتا بطلان هاتين المادتين. كما اضطر ليوبولد لأن يوقع اتفاقاً مع فرنسا فى أغسطس سنة ١٨٩٤ ، تنازل بمقتضاه عن فكرة احتلال منطقة بحر الغزال ، فبقى الطريق مفتوحاً أمام الفرنسيين للوصول إلى أعالى النيل من ناحية الغرب ..

ثم جرت مباحثات بين إنجلترا وفرنسا فى أوائل سنة ١٨٩٥ كانت نتيجتها الفشل ، فأدى هذا إلى تحمس كبير من جانب الامبرياليين الفرنسيين ، وأصبحوا يحلمون — أكثر من أى وقت مضى — ببلوغ النيل عن طريق بحر الغزال . ولمعارضة المشروع البريطانى ، الذى يهدف إلى وصل الكاب بالقاهرة فى خط غير منفصم من الأراضى البريطانية ، ظهر مشروع وصل الاطلنطى بالبحر الأحمر فى خط من المراكز الفرنسية . وقد شبه ذلك بقطع الكتلة الإفريقية بالعرض قبل أن تقطعها إنجلترا بالطول . كما أن ليوبولد قام أيضاً فى تلك السنة بمباحثات فى لندن وباريس ، يهدف من ورائها إعطاءه كل وادى النيل من الخرطوم حتى بحيرة فكتوريا بصفة إيجار . ولكنه لم ينجح

فى هذه المباحثات ونظر إلى نشاطه باستخفاف ..

وعلى العموم كانت بريطانيا فى أوائل عام ١٨٩٦ غير مستعدة لإعطاء فرنسا أو بلجيكا أو غيرهما أية امتيازات حقيقية فى أعالى النيل . وكان هدفها تأجيل المسألة المصرية السودانية حتى يتم استعدادها فتعمل فيها بقوة . ولكن لم تتح للإنجليز فرصة اختيار الوقت المناسب لهم . فلقد انقلب الموقف السياسى ، وزاده تعقيداً انهزام الإيطاليين أمام الأحباش فى عدوة فى ماوس سنة ١٨٩٦ .

وعلى أثر هذه الهزيمة اتخذت إنجلترا فوراً قرارها بالتقدم لاسترداد السودان عن طريق وادى حلفا والنيل . ويعلل بعض الكتاب مثل ونستون تشرشل اتخاذ هذا القرار بأن الرأى العام البريطانى ضغط على الحكومة لشعوره بوجوب الأخذ بثأر جوردون . ويقول البعض الآخر إن الذى أزعج الإنجليز حقاً هو النشاط الذى استأنفه الدراويش فى شرق السودان ، وأنه كان هناك تفاهم بينهم وبين إمبراطور الحبشة . والحقيقة أنه بهزيمة الإيطاليين — أصدقاء الإنجليز — فى عدوة ، تحطم السد الذى حاول الإنجليز إقامته فى وجه فرنسا فى الناحية الشرقية حتى لا تصل إلى أعالى النيل من هذه الناحية . ولما أدرك البريطانيون خطورة موقفهم بهزيمة أصدقائهم وانكشاف جناحهم الشرقى ، أسرعوا فى تنفيذ استرداد السودان لكى يصلوا بقواتهم إلى أعالى النيل قبل وصول الفرنسيين . وكانت حملة استرداد السودان بقيادة كتشنر ، وانتهت بهزيمة عبد الله التعايشى فى أم درمان فى سبتمبر سنة ١٨٩٨ .

وكانت فرنسا لسنين عديدة تريد جلاء الإنجليز عن مصر . وعند ما فشلت فى هذا الأمر قررت الاندفاع إلى أعالى النيل ، لترغم الحكومة البريطانية على الاتفاق بخصوص المسألة المصرية ، ولتضع حداً لحلم البريطانيين بربط مصر برأس الرجاء الصالح ، فقررت فى سنة ١٨٩٦ إرسال حملة إلى أعالى النيل بقيادة الضابط مارشان . ووصل مارشان إلى فاشودة على

النيل الأبيض — ن طريق الكنغو — فى مساء ١٠ يولية سنة ١٨٩٨ مصحوباً بستة ضباط أوروبيين ونحو مائة وعشرين من السنغاليين ، ورفع العلم الفرنسى على أنقاض القلعة المصرية القديمة هناك . كما أن ليوبولد نظم بعثتين عظيمتين فى الكونغو للتقدم تجاه النيل إلى لادو ، وذلك لمساعدة مارشان ، إن أمكن ، ضد أى هجوم من الدراويش ولحماية مؤخرته . وفى الوقت نفسه اتفقت فرنسا مع إمبراطور الحبشة على إرسال حملات فرنسية من الصومال الفرنسى وأخرى حبشية لتتجه غرباً إلى النيل الأبيض لمقابلة مارشان ومساعدته . ونلاحظ أن الحبشة كانت تطمع فى امتداد أراضيها فى النيل ، ولذلك اشتركت مع فرنسا فى هذه الحملات . وعلى العموم وصل مارشان إلى فاشودة ولم يجد هذه الحملات لفشلها فى الوصول ، لأنها لم تعمل حساب المستنقعات والنهيرات الكثيرة التى واجهتها فى طريقها ، خصوصاً وأن وقت تقدمها كان يتفق مع بدء سقوط الأمطار فى هذه المنطقة ..

ومما يجدر ذكره أنه قبل استئناف القتال ضد الخليفة عبد الله التعايشى ، كان هناك اجتماع هام لمجلس الوزراء فى لندن ، حضره اللورد كرومر ، المعتمد البريطانى فى مصر . وقرر فى هذا الاجتماع أنه عند استراد الخرطوم ، يجب أن يخفق العلمان المصرى والإنجليزى جنباً إلى جنب فى السودان ، وأن على الحكومة المصرية أن تتبع مشورة بريطانيا فى كل ما يتعلق بأمور السودان. وزيادة على ذلك تقرر إرسال أوامر لكتشنر بأن يرسل بعض القوارب الحربية فى النيل الأزرق ، ويتقدم هو بقوة صغيرة فى النيل الأبيض حتى فاشودة ، أو أبعد من ذلك إذا أمكن . كما أن عليه ألا يعترف بأية مطالب فرنسية أو حبشية فى أى جزء من وادى النيل ، وأن يتجنب الاصطدام بقوات فيليك ، إمبراطور الحبشة ، مهما كان الأمر .

ورأى كتشنر أنه من الضرورى تنفيذ هذه الأوامر فى الحال بعد هزيمة الخليفة ، لأنه فى ٧ سبتمبر سنة ١٨٩٨ كانت هناك باخرة نيابة تابعة للمهديين ،

الحملات الموجهة الى أعالى النيل فى سنتى ١٨٩٧ و ١٨٩٨

فرنسية
بلجيكية
حبشية
بريطانية

وادى حلفا
ابوحمد
دنقلة
سواكن
كسلا
الخرطوم
بربر
شندى
الحبشة
ارتيريا
تجورى
جيبوتى
زيلع
الصومال البريطانى
اديس ابابا
ماكونن
بونشاب
نشامنا
بحيرة رودلف
افريقية الشرقية البريطانية
الخليج الهندى
الغزال
فاشوده
السوباط
فورد بندى
كاركارو
نامبورا
ابيراس
نهر ولى
نهر الواجى
نهر مبومو
نهر الوادى
نهر الكنغو
مسافة فيل
دانس
اوغنده
بحيرة البرت نيانزا
الكنغو الفرنسية
الكنغو
وادى

آتية من آعالى النيل ، وأوقفت بالقرب من الخرطوم . وعند استجواب بحارتها قرروا أن باخرتهم كانت قد أرسلت إلى النيل الأبيض منذ مدة ، ولكن أطلق عليهم بعض البيض النار عند فاشودة واضطروهم للرجوع . ودعَّم فحصُ الرصاص الذى استقر فى خشب الباخرة الحقيقة القائلة إن هناك أوروبيين فى فاشودة . ولم تبذل السلطات فى الخرطوم أى جهد لمعرفة من هم هؤلاء . إذ بعد ذلك بثلاثة أيام رحل كتشنر بخمس بواخر وقوة من السودانيين قوامها ١٨٠٠ جندى ، يساعدها عدد قليل من الجنود البريطانيين . وعند اقترابه من فاشودة فى ١٨ سبتمبر أرسل خطابا إلى مارشان ، وأجاب عليه القائد الفرنسى قائلا إنه احتل المنطقة منذ ١٠ يولية ، ولا يمكنه تركها بدون تعليمات من حكومته . وفى اليوم التالى تقابل الرجلان . ورفض مارشان أن ينسحب ، بالرغم من احتجاجات كتشنر .

ويصف كتشنر مقابلته مع مارشان فى رسالة أرسلها من الخرطوم فى أواخر سبتمبر إلى السفارة البريطانية بالقاهرة قال فيها : «رجعت الآن من فاشودة ، وقد لقيت فيها المسيو مارشان وثمانية ضباط و ١٢٠ جنائياً ، وكانوا قد رفعوا الراية الفرنسية على دار الحكومة القديمة وسكنوا فيها ، فكتبت إليه كتاباً قبل وصولى بيوم أخبره فيه أنى قادم إلى فاشودة . وفى الصباح التالى ، أى فى ١٩ سبتمبر جاءنى زورق صغير رافعاً الراية الفرنسية بجواب من مارشان يقول فيه إنه وصل إلى فاشودة فى ١٠ يولية بعد أن أمرته حكومته باحتلال بحر الغزال حتى ملتقاه ببحر الجبل ، وأيضاً بلاد الشلك على الضفة اليسرى فى النيل الأبيض حتى فاشودة . وأنه عقد معاهدة مع مشايخ الشلك مقتضاها بسط حماية فرنسا على بلادهم ، وأرسل المعاهدة إلى حكومته لتصدق عليها عن طريق الحبشة وطريق بحر الغزال أيضاً . ثم وصف القتال الذى جرى بينه وبين الدراويش فى ٢٥ أغسطس . وقال إنه كان ينتظر هجومهم عليه هجمة أعظم من الأولى . فتداركا لذلك أرسل باخرته فى طلب

الملد . ولكن وصولنا منعهم من إعادة الكرة عليه . فلما وصلنا إلى فاشودة جاء المسيو مارشان والمسيو جرمان إلى باخرتنا . فأخبرتهما على الفور أنه وجود قوم من الفرنسيين فى فاشودة ووادى النيل يعد تعدياً على حقوق مصر والحكومة الإنجليزية . واعترضت على احتلالهم لفاشودة ، ورفعهم الراية الفرنسية على أملاك سمو الخديوى أشد الاعتراض . فأجابنى المسيو مارشان أن الأوامر صادرت إليه صريحة باحتلال البلاد ورفع الراية الفرنسية على دار الحكومة فى فاشودة . وأنه يستحيل عليه الخروج من ذلك المكان إلا بأوامر حكومته ، وهو ينتظر ألا تبطئ أوامرها . فسألته عما إذا كان يقاومنا فى رفع الراية المصرية على فاشودة ، وهو يعلم أن معى قوة أعظم من قوته . فتردد ثم قال إنه لا يستطيع المقاومة ، فرفعت الراية المصرية حينئذ جنوبى الراية الفرنسية بنحو خمسمائة ياردة على ركن منهدم من أركان الحصون المصرية القديمة المشرفة على الطريق الوحيد بين مكان الفرنسيين وبين داخلية البلاد ، لأن المستنقعات تحيط بمكان الفرنسيين من الشمال . وقبل سفرى من فاشودة جنوباً سلمت إلى المسيو مارشان كتاباً اعترضت فيه اعتراضاً رسمياً بالنيابة عن الحكومة الإنجليزية والحكومة المصرية على احتلال فرنسا لجزء من وادى النيل ، لأن ذلك يكون تعدياً على حقوق الحكومتين . وقلت إنى لا أعترف باحتلال فرنسا لجزء من وادى النيل . وتركت فى فاشودة حامية ، وهى عبارة عن أورطة سودانية ، وأربعة مدافع ، وباخرة ، تحت أمر الماجور جاكسون ، وعينته قومندانا لمركز فاشودة . ثم سرت إلى سُبت ورفعت الراية عليها ، وأقمت نقطة فيها فى ٢٠ سبتمبر . ولم أر للأحباش أثراً على نهر السوباط . ولكن أنبئت أن أقرب نقطة لهم تبعد ٣٥٠ ميلا عن ذلك النهر . ووجدت بحر الجبل غاصاً بالطحالب والأعشاب ، فأمرت مدفعية أن تسير فى بحر الغزال للاستطلاع متوجهة ناحية مشرع الرق . وعدت ، فلما مررت بفاشودة فى رجوعى شمالا ، أرسلت إلى المسيو مارشان ، كتاباً

أقول فيه إن نقل المواد الحربية ممنوع ، لأن البلاد موضوعة تحت الأحكام العرفية : وجاء شيخ قبيلة الشلك وكثيرون من رجاله إلى معسكر الماجور جاكسون ، وأنكر أنه عقد معاهدة مع الفرنسيين . وقد أبدت القبيلة كلها مزيد السرور بالرجوع إلى طاعتنا . هذا والمسيو مارشان تعوزه الذخيرة والمؤونة ، وكل ما يرسل إليه لا يصله إلا بعد أشهر . ثم إنه منقطع عن داخلية البلاد . ووسائط النقل فى الماء عنده لا تفى بالمراد ، وليس له أتباع فى هذه البلاد . ولو تأخرنا أسبوعين عن هزيمة الخليفة لأفنى الدراويش حملته ولم يُنْجها أحد من أيديهم . وأدرك الكابتن مارشان بنفسه تماماً عبث مجهوداته ، ويبدو أن رغبته فى العودة كانت تعادل رغبتنا فى تسهيل رحيله . ففى موقفه الراهن كان لاحول له ولا قوة ، ولكن أرجو أن تتخذ حكومة جلالة الملكة التدابير اللازمة لإبعاده بأسرع وقت ممكن ، لأن وجود قوة فرنسية وعلم فرنسى فى النيل غير مرغوب فيه للغاية » .

ولقد أثار النصر فى أم درمان على قوات الخليفة عبد الله التعايشى سروراً عظيما فى إنجلترا ، واستولى هذا السرور على الانجليز كما قال تشرشل لدرجة أن الناس حمدوا الله وحكومتهم وجنرالهم ، أى كتشنر ، وإذا حكمنا على شعورهم بما يكتب فى الصحف ، نجد أن الناس قد جنوا بفرحة النصر ، ثم فى مدى أسبوع أتت إشاعات بظهور الفرنسيين فى أعالى النيل . وبالرغم من مجهودات كتشنر فى إخفاء تحركاته ، إلا أن مراسلى الصحف فى الخرطوم ، أرسلوا أخبار مقابلته لمارشان . وقبل نهاية سبتمبر أصبحت المسألة شائعة فى انجلترا . وهنا أيضاً يصف تشرشل رد الفعل فى انجلترا فيقول : « إن حادثة فاشودة عكرت صفو الابتهاج العام ، فالشعب الإنجليزى فوجئ بأن دولة صديقة — بدون أية إشارة لها — قد حاولت أن تسلبه ثمرة انتصاراته . وأدرك الآن أنه بينما هو يكرس نفسه لأعمال حربية عظيمة فى وضح النهار وأمام العالم كله ، ويجهز مشروعاً قد وطد العزم عليه ، كانت هناك عمليات

مضللة ـ تجرى فى الخفاء ـ فى وسط إفريقية لغرض دنىء هو حرمانه من نتيجة أعماله . ولقد صمم على أن يقف ضد هذا السلوك » .

وشنت الصحف البريطانية بأجمعها حملة على الفرنسيين . ومن حين لآخر كانت تنتقد الفرنسيين باعتدال ، جريدة حرة كالمانشستر جارديان ، ولكن كانت هناك صحف كثيرة لهجتها حادة وعباراتها قاسية ، فتصف فريق مارشان بأنه « عصابة من المغيرين » . وكانت الجرائد لا تطيق المفاوضة أو أى مناقشات معقدة . واعتبر البريطانيون بعثة مارشان مظهراً عدائياً لإنجلترا . واعتبروا مارشان دخيلا ، ويجب طرده ، حتى ولو أدى الأمر إلى إنذار ، ثم تجهيز حملة وحرب مع فرنسا .

وكان إجماع الساسة يعادل إجماع الصحف . ووضع الأحرار والاتحاديون والمحافظون أنفسهم تحت تصرف الحكومة ، وطالبوا مجلس الوزراء باتخاذ موقف حاسم .

وقد يسأل سائل : هل كان اللورد سولسبرى ، رئيس الوزراء ، فى حاجة إلى هذا التشجيع من الساسة ومن الصحف؟ ومهما كان رأيه بالنسبة للمسألة ، فإنه منذ وقت طويل كان يرى أن الرأى العام الإنجليزى لا يرضى بسياسة منح امتيازات ما فى مسألة النيل . ولقد أنذر الفرنسيون مراراً بأن وزارة الخارجية البريطانية لن تبحث أية مطالب فى أى جزء من وادى النيل . وبعد موقعة أم درمان أرسلت تعليمات للسير إدموند مونش ، سفير بريطانيا فى باريس ، بأن يخبر وزارة الخارجية الفرنسية بأن « كل المناطق التى كانت تابعة للخليفة ، قد انتقلت إلى الحكومتين الإنجليزية والمصرية » ، وأن بريطانيا غير مستعدة للمناقشة فى ذلك . وفى أثناء المجادلة التى أتت بعد أخبار مقابلة كتشنر بمارشان أصر سولسبرى على رأيه ، ورفض التحدث عن المطالب الفرنسية حتى يُستدعى مارشان .

وعلينا أن نبحث الآن الموقف كما ظهر فى باريس . وقبل كل شىء يجب أن نتذكر أن خريف وشتاء ١٨٩٨ ــ ١٨٩٩ كان من أحرج الأوقات فى التاريخ الداخلى للجمهورية الثالثة قبل الحرب العالمية الأولى. فقد دخلت قضية دريفوس ، هذه القضية المشهورة التى يرجع تاريخها إلى سنة ١٨٩٤ ، فى مرحلتها الحاسمة . وكانت مسألة دريفوس مأساة ظلت مدة عشر سنوات تقيم الفرنسيين وتقعدهم . وتتلخص فى أن « ألفرد دريفوس » أحد ضباط الجيش ، اتهم سنة ١٨٩٤ بالخيانة العظمى . إذ وجهت إليه تهمة بيع وثائق حربية لحكومة أجنبية . وعقد المجلس العسكرى ، الذى كُلف النظر فى قضية الضابط المشار إليه ، عدة جلسات سرية ، انتهت بإدانته والحكم عليه بالطرد من الجيش وبالسجن المؤبد . وفى سنة ١٨٩٦ ، حيث كادت هذه القضية تتوارى عن الأنظار ، ظهر على المسرح الضابط بيكار ، وكان قد عين مديراً لإدارة المخابرات ، ومن اختصاصها حفظ الأسرار الحربية ، وتبين له أن دريفوس برىء ، وأنه دُسَّت عليه بعض المستندات ، وأنه كان ضحية مؤامرة فى الجيش ، واحتج على ذلك ففُصل من وظيفته . وسرعان ما انقسمت فرنسا إلى قسمين : أغلبية ضد دريفوس ، وكان قوامها حزب المحافظين ورجال الدين الكاثوليك . وأقلية تطالب بإعادة المحاكمة ، وكان قوامها لفيفاً من المصلحين المستنيرين ، اشتهر منهم الروائيان « أناتول فرانس » و« إميل زولا » . والسياسى الصحفى « جورج كلمنصو » والمهم أنه فى أثناء أزمة فاشودة بلغت قضية دريفوس ذروتها ، واتخذت طابع حرب أهلية . وامتلأ شهر اكتوبر سنة ١٨٩٨ بالمظاهرات والمنازعات والإشاعات من كل نوع ، وبالخوف الهائل والفزع . ولا داعى للاسترسال فى موضوع قضية دريفوس ، ويكفى القول إنه قضى بتبرئته فى سنة ١٩٠٦ وأعيد إلى الجيش .

ويمكن أن نتصور أنه وسط هـــذه الحالة التى خلقتها قضية دريفوس ، لم يبق للفرنسى العادى ، الذى لم يكن لديه اهتمام كبير بشئون المستعمرات ، أى مجال للتفكير فى مصر والسودان ، وأما دعاة التوسع والاستعمار النشيطين ، فبطبيعة الحال ، كانوا يتتبعون سير الحوادث باهتمام بالغ . ويبدو أن هذه الدوائر اعتقدت أن استرداد الخرطوم وإثارة مشكلة السودان عامة ، سوف تنتهى باستئناف المباحثات بين انجلترا وفرنسا بشأن مصر .

والاتجاه الملائم الذى كان يجب على الحكومة الفرنسية الأخذ به فى ذلك الوقت هو الاتجاه الودى ، ففرنسا كانت فى أزمة داخلية عنيفة ، وغير مستعدة تماماً لأن تخوض غمار الحرب ، وموقف مارشان كان محفوفاً بالأخطار ، كما أن الإنجليز رفضو باستمرار تحديد مطالبهم أو بحث مطالب غيرهم . فمن البداية قال سولسبرى ، رئيس الوزارة البريطانية ، إن الرأى العام البريطانى لا يحتمل أى عرض بمنح أية دولة امتيازات فى أعالى النيل ، ونتيجة لعدم رغبة الإنجليز هذه فى مناقشة المسألة ، ولتعصب الصحافة البريطانية ، لم يسلّم دلكاسيه ، وزير الخارجية الفرنسية ، وأوضح رأيه قائلا إنه لا يمكن سحب مارشان ما لم توافق الحكومة الإنجليزية على المفاوضة . ورداً على هذا رفض سولسبرى رفضاً باتاً أى بحث حتى يجلوَ الفرنسيون من مركزهم .

ومن الممل جداً أن نذكر بالتفصيل الحجج والمناقشات ، التى قدمت فى الأسابيع التالية لإثبات أو عدم إثبات حق الفرنسيين فى وجودهم فى فاشودة ، إذ أنه منذ حرب القرم لم يُصب نزاع دولى بمثل هذه المناقشات البيزنطية المتناقضة . وذكر ولفرد بلنت فى مذكراته أن كلا من الجانبين كان مخطئاً . ولاحظ مسيو كوشرى ، وهو من أقدر من كتبوا فى الموضوع ، أن حجج الفرنسيين والبريطانيين كانت فى الأصل واحدة ؛ وإنما المتعب

أن الحجة نفسها لم تكن تقدم من كل من الجانبين فى وقت واحد . لقد أخلى المصريون السودان تحت ضغط الإنجليز وأوامرهم ، فما مركزه بعد ذلك من ناحية القانون الدولى ؟ كان رأى أعظم المشرعين الفرنسيين مثل دسبانيه وبونفس هو أن حقوق السلطان العثمانى وخديوى مصر ما زالت قائمة ، وأن السودان لا يعد مشاعاً أو بلا صاحب . ومن ناحية أخرى كان من رأى بعض الناس أمثال سير صامويل بيكر ، وسير فردريك لوجارد أن المنطقة قد أخليت وأنها سوف تتبع أول دولة تستطيع أخذها من المهديين . ولقد ضمت الحكومة البريطانية أجزاء كانت تابعة لمصر على البحر الأحمر وفى أوغندة وأونيورو . كما ساعدت الإيطاليين فى الحصول على أجزاء أخرى على البحر الأحمر ، وأجرت مناطق لملك البلجيك ، وفى اتفاقها مع ألمانيا سنة ١٨٩٠ طالبت بجزء كبير من المنطقة الاستوائية ليكون تحت نفوذ بريطانيا .

وكان للحرية التى تمتع بها الإنجليز فى ضم أجزاء كانت تابعة لمصر أثر فى أن هانوتو ، وزير الخارجية الفرنسية ، فى سنتى ١٨٩٤ و ١٨٩٥ ، أصر على رفضه نظرية أن السودان مشاع ، وأكد حقوق الخديوى والسلطان . وبالرغم من هذا الموقف فإن هانوتو بارك بعثة مارشان ، وكان هم السياسة الفرنسية فى السنين التى تلت ١٨٩٥ هو الحصول على جزء من الغنائم . وعند ما قامت أزمة فاشودة فى سنة ١٨٩٨ انعكست الآية ، وتغير موقف الدولتين المتنافستين ، فيقول الفرنسيون إن السودان مشاع وإن لهم الحق هناك كما للإيطاليين على البحر الأحمر ، أو للإنجليز فى أوغندة ، أو للبلجيكيين فى لادو ، وقالوا إنه بالرغم من صغر قوة مارشان فإنه احتل منطقة بحر الغزال احتلالا تاماً . وجواباً على هذا قال البريطانيون إن بريطانيا تعمل من أجل مصر . وعند ما لم يقتنع الفرنسيون بهذه الحجة ضرب الإنجليز على نغمة أخرى : لنفرض أن المنطقة ضاعت بالنسبة لمصر تماماً ، وأنها تبعت

للنراويش ، فإنها الآن استردت منهم وتتبع البريطانيين والمصريين . والحقيقة أنه لا فرنسا ولا انجلترا كان لها أى حق فى التحكم فى مصر أو السودان ، أو أى جزء من وادى النيل ، فإذا جردت مناقشاتهم من الدبلوماسية والدعاية الصحفية ، فهى لا تنطوى على شىء إلا على روح الاستعمار والاستغلال ، وهذه لا تستند إلى حق بل تؤيدها القوة .

ومن الواضح أن حجج الإنجليز والفرنسيين ومناقشاتهم كانت لا دخل لها فى الوضع النهائى للمسألة . وكما ذكرت كان سولسبرى ، رئيس الوزارة البريطانية ، مصمماً على عدم الرضوخ ، أو بحث أية امتيازات للفرنسيين ، وإزاء هذه الحالة أصبحت المسألة مسألة قوة .

وكان فى الإمكان أن تسحق قوات كتشنر البالغ عددها أربعون ألفاً قوات مارشان ، ولكن ذلك معناه حرب بين إنجلترا وفرنسا . وكانت لندن تدرك هذا جيداً . ولكن الحكومة لم تكن تخشى مثل هذا العمل .

عند ما انتهت أزمة فاشودة تقريباً ، كتبت جريدة التيمس تقول إنه فى سنة ١٨٧٨ كان البريطانيون يغنون بحماسة « لدينا الرجال ، لدينا السفن ، ولدينا المال أيضاً » . أما فى سنة ١٨٩٨ ، قالت هذه الجريدة الكبيرة إنه لم يكن هناك أى غناء ، فإن البريطانيين لم يكونوا فى حاجة إلى تقوية الرأى العام ، إذ كانت هذه هى المرة الأولى التى تواجه إنجلترا فيها أزمة كبيرة دون أدنى خوف .

وكانت هذه الثقة العامة لها ما يبررها . فالسنوات الأخيرة شاهدت بناءا كبيراً للسفن وزيادة عامة فى الأسطول جعل سيادة بريطانيا فى البحر أمراً مؤكداً ، فكان لدى إنجلترا من السفن الحربية التى عمرها أقل من عشر سنوات وسرعتها ١٦ عقدة على الأقل ، ٣٤ سفينة ؛ فى مقابل ١٣ لفرنسا و ١٧ لروسيا . وكانت إنجلترا أقل من هاتين الدولتين فى الطرادات والنسافات فقط . وقيل فى أحلك أوقات الأزمة ، إن سفن الأسطول البريطانى الحربية

تعادل سفن أساطيل فرنسا وروسيا وألمانيا مجتمعة ، وإن السفن الحربية البريطانية متجانسة ومتشابهة ، ولذلك فهى أكثر انسجاماً . وعبر ناقد فرنسى عن رأيه قائلا إنه لو تركنا جانباً مسألة إحصاء السفن وعددها ، فإن الأسطول البريطانى كان يعادل فى القوة أربعة أمثال الأسطول الفرنسى ، وأقوى من كل أساطيل أوروبا مجتمعة .

وكانت الاستعدادات البحرية البريطانية على قدم وساق طوال شهر اكتوبر . ففى بورتسموث أعيدت كل المهمات حتى تتمكن القوات الثقيلة من أن تبحر فوراً وقت اللزوم . ولم تعرف التفاصيل للتكتم الشديد على هذه العمليات ، ومع ذلك يبدو أن فرق بحر المانش ذهبت تجاه الساحل الفرنسى استعداداً لحصار السفن الحربية الفرنسية عند برست Brest ، وراقبت قوة أخرى مضيق جبل طارق لتمنع الأسطول الفرنسى فى البحر المتوسط من الخروج منه . أما فى البحر المتوسط نفسه فوضعت قوة كبيرة بين مالطة وجبل طارق ، وكانت على استعداد لحصار طولون ، أو النزول عند بنزرت . وأرسلت قوة أخرى إلى الإسكندرية لحراسة قناة السويس .

وشعر الإنجليز بأنهم مستعدون لكل الاحتمالات . أما من الناحية الأخرى ؛ فقد استولى على الفرنسيين ذعر عام . وكان إجماع العالم على أن الأسطول الفرنسى ثانى أسطول فى العالم بعد الأسطول الإنجليزى . ولكن السلطات البحرية الفرنسية كانت مشلولة إلى حد ما لمدة طويلة نتيجة للنزاع المتواصل بين أفرادها . وكان للساسة أيضاً دخل كبير فى اضمحلال الاستعدادات البحرية الفرنسية . وعلى أى حال ، كان يبدو أن الحالة فى سنة ١٨٩٨ تدعو تماماً للشفقة . فالأسطول الفرنسى فى بحر المانش كان مكوناً من سفن حربية صنعت قبل سنة ١٨٨٥ وغير متجانسة وتصميماتها مختلفة . وكانت الموانئ البحرية فى فرنسا نفسها وفى المستعمرات تقاسى نقصاً كبيراً فى الرجال ، بينما كانت الورش غير مجهزة تجهيزاً كافياً . ففى برست وشربورج وطولون كان يمكن تشغيل ثلث المدفعيات فقط لنقص الرجال وقلة الذخائر .

وشعرت الحكومة الفرنسية فى آخر لحظة بخطورة الموقف . فبعد أن أشعلت النار فى برميل فاشودة المملوء بالبارود ، هب الفرنسيون فزعين ، متدهشين وعاجزين . وكانت نغمة الصحف البريطانية تنم عن الروح الحربية . وكان هناك اتجاه عام فى انجلترا بأن الوقت قد حان لتصفية المسائل مع فرنسا . وفى كل الدوائر البريطانية كانت فكرة الحرب رائجة حتى بين أعضاء الوزارة أنفسهم .

وصلت تقارير بكل ذلك إلى باريس طوال شهر اكتوبر سنة ١٨٩٨ . وفى وزارة البحرية الفرنسية كان هناك اتفاق عام فى الرأى على أن الإنجليز قد يثيرون حرباً ليتخلصوا من الأسطول الفرنسى قبل أن يقوى الأسطول الألمانى الحديث العهد . وكان الضباط الفرنسيون يرون أن فرنسا غير قادرة على الحرب فى البحر . كما أن وزير البحرية الفرنسية كان مقتنعاً بأن الحرب ضرب من اليأس ، واتفق معه فى الرأى رئيس الوزراء بريسون ورئيس الجمهورية فوريه .

وكانت سياسية دلكاسيه . وزير الخارجية الفرنسية ، اكتساب الوقت حتى تتمكن فرنسا من عمل شيئين : أولهما إتمام الاستعدادات البحرية الهامة ، وثانيهما محاولة ضم روسيا إلى مساعدتها . ولذا طلب من الإنجليز إمهاله بعض الوقت حتى يأتيه تقرير من مارشان ، وحتى يشرح له الكابتن براتييه الذى استدعى إلى باريس لحل الموقف . وفى الوقت نفسه أخذت فرنسا فى تحصين سواحلها حتى تكون فى حالة دفاع على الأقل . فأرسلت الذخيرة والجند على وجه السرعة إلى برست وشربورج ، وأعدت السفن بسرعة للعمل . وفى طولون كان العمل يجرى ليل نهار فى مراسى السفن ، وألغيت كل الأجازات . وأعيد كل الأسطول الموجود فى البحر المتوسط . ووُضع تحت إمرة الأميرال فورنييه ، وهو من أقدر الضباط البحريين . وفى النهاية استطاع رئيس الجمهورية فوريه أن يقنع رئيسى اللجنتين الماليتين فى مجلسى

الشيوخ والنواب باعتماد صرف نحو مائة مليون فرنك بدون موافقة البرلمان ، وبدئ فى عملية إصلاح واسعة فى الأسطول .

وبينما كانت الأزمة فى أوجها أتى وزير خارجية روسيا إلى باريس فى ١٥ أكتوبر ، وتبعه بعد أيام قلائل وزير الحرب الروسى الجنرال كورباتكين . ولم يُعرف إلى الآن ما دار فى المحادثات التى امتدت أياماً عديدة ، ولو أنه ليس من الصعب أن نخمن . فالعلاقات الفرنسية الروسية لم تكن على خير ما يرام فى ذلك الوقت . وكانت الجماعات السياسية فى فرنسا ، اليمينية منها واليسارية ، تشعر بخيبة أمل بالنسبة للتحالف مع روسيا ، وهو تحالف لم يبد أكثر من كونه ترتيباً للاحتفاظ بالوضع الراهن فى أوروبا ولاستدراج فرنسا إلى حظيرة السياسة الألمانية . وفى أغسطس سنة ١٨٩٨ أصدر القيصر الروسى بغير سابق اتفاق مع فرنسا منشوره الشهير للسلام . وأيقن الفرنسيون أن الروس لا يرغبون فى مساعدتهم ، ويتلخص رد الفعل العام فى الدوائر السياسية الفرنسية فى العبارة الآتية : تخلّوا عنا .

أما من ناحية الجانب الروسى فكان عدم الرضا أيضاً ظاهراً : ما فائدة حليف مشلول بمرض حاد كمسألة دريفوس ؟ ماذا يستطيع أن يفعل الإنسان بوزارة متطرفة فى السياسة مثل وزارة بريسون التى يعضدها رجال أمثال كليمنصو وجوريه ورانك وآخرون ممن يُعرفون بعدائهم للتحالف الروسى الفرنسى ؟

وأعلنت الصحافة الروسية كراهيتها للحكومة الفرنسية وعزمها على عدم مساعدتها . « عند ما يشعر الرجل بأن أمرأته لم تعد جميلة يبدأ فى الاعتقاد بأن مهرها كان ضئيلا »، كتب هذا مراسل جريدة التيمس البريطانية فى باريس فى ١٤ أكتوبر مبيناً أنه لم يكن هناك فى الجهتين الروسية والفرنسية إلا السخط والتراشق بالتهم . وعلى العموم فإن وزير الخارجية الروسية أكد للدلكاسيه وزير الخارجية الفرنسية أن روسيا ستحترم التزاماتها ، ولكن تعبئتها العسكرية ستستغرق وقتاً طويلا ، وأسطولها لا يستطيع ترك موانئه فى الشتاء لتجمد

المياه . ولذلك فهو ينصح فرنسا بأنه من الخير لها أن تسلّم بمطالب إنجلترا ، وخاصة لأن مستنقعات فاشودة ليست مسألة حيوية لفرنسا ، وبعد ذلك يمكن لروسيا أن تساعد فرنسا فى إثارة المسألة المصرية جميعها مرة أخرى .

ومن الصعب أن ندرك كيف يغيب عن بال أى شخص أن يفهم حقيقة الموقف بين روسيا وفرنسا بعد قراءة المقالات فى الصحف الفرنسية . فمثلا كتبت جريدة الشمس Soleil الفرنسية فى ١٣ نوفمبر سنة ١٨٩٨ تقول : « لقد أرسلنا بحارتنا إلى كييل بمناسبة افتتاح قناة البلطيق ، وذلك لنرضى روسيا . ووافقنا بعد الحرب اليابانية الصينية على أن نستخرج الكستناء من النار لروسيا ، وبذلك استطاعت روسيا أن تكسب منشوريا وتحصل على مركز ممتاز فى بحار الصين بدون إنفاق روبل واحد (والروبل هو ريال روسى ويعادل عشرة قروش) ؛ وبدون المخاطرة بأى قوزاق ، (والقوزاق هو الفارس من جنوب روسيا) ، كما أعطينا روسيا مليارات عديدة من الفرنكات من احتياطنا الذى كان من الممكن أن ننتفع به فى الداخل . وفى مسألة فاشودة لم ترفع روسيا أصبعاً للدفاع عنا . وهى من غير شك تعتبر أنها ردت الخدمات التى أديناها لها ببعض البرقيات التى أرضت غرور مسيو فيلكس فوريه وببعض النياشين التى أرضت مسيو هانوتو» .

والمهم أن الحالة فى فرنسا وقتذاك كانت تدل على الحيرة والعجز التام . ففى وسط الاضطراب الداخلى وجدت فرنسا نفسها غير مستعدة عسكرياً وبدون المساعدة التامة من حليفتها . وكان الإنجليز عازمين على السير إلى نهاية الشوط . ولذلك لم يكن هناك أى حل للفرنسيين غير التسليم . وفى ٢٩ أكتوبر سنة ١٨٩٨ بدأت الصحافة الفرنسية تتكلم عن القرار المنتظر . وناقش مجلس الوزراء الفرنسى الموضوع فى ٣ نوفمبر . وفى مساء اليوم التالى أذاعت شركة هافاس الفرنسية البلاغ الرسمى الآتى : « قررت الحكومة الفرنسية سحب بعثة مارشان من فاشودة . وقد اتخذ مجلس الوزراء هذا القرار بعد دراسة عميقة للمسألة » . وبذلك عرف العالم أن فرنسا قررت الانسحاب من فاشودة بلا قيد ولا شرط .

وكان مارشان قد ترك قواته فى فاشودة وذهب إلى القاهرة عن طريق النيـــل ، بدون تصريح من باريس ، فأمر بأن يعود ثانية إلى فاشودة لينظم رحيل قواته . وكان عليه أن يترك المكان المتنازع عليه ويسافر عن طريق السوباط إلى الحبشة ومنها إلى الممتلكات الفرنسية على البحر الأحمر . وفى ١١ ديسمبر سنة ١٨٩٨ أنزل العلم الفرنسى نهائياً . ورحل مارشان ورجاله ، وبعد مشقة وصلوا إلى العاصمة الحبشية ، وفى الربيع كانوا فى باريس .

وبعد قرار الحكومة الفرنسية بالانسحاب من فاشودة ، ألقى تشمبرلين ، وكان بوق الامبرياليزم الاقتصادى والاستغلالى ، خطبة فى مانشستر فى ١٥ نوفمبر سنة ١٨٩٨ ، قال فيها إنه يأمل أن يكون الفرنسيون فى سخبهم مارشان قد اقتنعوا بالمبدأ الذى كانت بريطانيا تقاومهم من أجله وبوجاهة موقف الإنجليز . ثم انتقل تشمبرلين إلى أن مسألة فاشودة ما هى إلا رمز ، وأن المهم ليس المدينة نفسها وإنما السيطرة على وادى النيل . وذكر كلاماً كثيراً عن مصر ، وأن بريطانيا ضحت تضحيات عظيمة حتى وصلت مصر إلى درجة من الرفاهية وأن كل التضحيات التى بذلت تصبح عبثاً إذا وقعت منابع النيل فى يد دولة معادية ، أو دولة يحتمل فى أى ظرف من الظروف أن تتحول إلى دولة غير صديقة ، ثم يوجه تشمبرلين الكلام للسياسيين الفرنسيين فيقول إن على الساسة الفرنسيين أن يقلعوا عن خططهم التى نهجوا عليها سنوات طويلة ، والتى لا غرض لها إلا عرقلة السياسة البريطانية فى كل جزء من أجزاء العالم .

ويوخذ على هذه الخطبة الإشارة إلى التضحيات البريطانية من أجل مصر ؛ ويجوز أن يهضمها المستمع الإنجليزى ، ولكن هذه النغمة كان فى الإمكان أن نسمعها من أية دولة استعمارية أخرى . ففرنسا أو إيطاليا بلا شك كانت ترحب بمثل تضحيات الإنجليز أو أكثر منها نظير السيطرة على كل وادى النيل . والواقع أن بريطانيا تذرعت بهذه الحجج فى تلك الأثناء ، لأن هذا

كان فى مصلحتها ، إذ جنبها عدم الانسحاب من مصر من جهة ، ومن جهة أخرى أفادها فى إبعاد الفرنسيين والبلجيكيين والأحباش وغيرهم عن منطقة أعالى النيل . وقد كان لحادثة فاشودة وقع شديد فى نفوس المصريين وأثر بالغ فى مصير المسألة المصرية وفى الحركة الوطنية فى مصر .

تبين لنا مما تقدم أن الأزمة السياسية اشتدت بين انجلترا وفرنسا على أثر هذه الحادثة ، وكان ظن المصريين أن تتمسك فرنسا بموقفها وتفتح باب المسألة المصرية وتضطر إنجلترا إلى الجلاء عن مصر مقابل جلاء الفرنسيين عن فاشودة . وقد استيقن المصريون أن آمالهم فى الجلاء ستتحقق ، إذ كانوا يعتقدون أن فرنسا لا تقدم على هذا التحدى لانجلترا إلا وهى مصرة على المضى فى سياستها إلى النهاية ، وكاد الخلاف بين الدولتين يصل إلى حرب طاحنة بينهما كما رأينا ، فعظم بذلك شأن المسألة المصرية ، وقويت آمال المصريين فى الاستقلال ؛ ولكن فرنسا تخاذلت وتراجعت آخر الأمر ، وخشيت مغبة الحرب إذ لم تتقدم حليفتها روسيا لمعاونتها ، فسلمت بوجهة نظر انجلترا ، وأمرت مارشان بالجلاء عن فاشودة ، وتم جلاؤه عنها يوم ١١ سبتمبر ١٨٩٨ . فكان هذا التسليم أكبر صدمة سياسية أصابت الحركة الوطنية فى مصر ، لأنه دلّ على أن فرنسا لا تنوى معارضة انجلترا فى احتلال وادى النيل والتصرف فيه كما تشاء ، ودل على نية الإنجليز فى دوام احتلالهم لمصر والسودان ، فزلزل هذا الحادث أمل المصريين فى الاستقلال وجنح بعض رجالات مصر إلى الولاء للاحتلال البريطانى واكتساب رضاه ، إذ رأوا فى حادثة فاشودة برهاناً جلياً على رسوخ أقدامه فى البلاد .

كتب مصطفى كامل إلى أخيه على ، وكان وقتئذ من ضباط حملة السودان كتاباً قال فيه : « . . . إن الأحوال السياسية سيئة للغاية بعد مسألة فاشودة ، وقد أظهر بعض الكبراء الجبن ، وكادوا يخونون بلاداً أحسنت إليهم بما

لا يحلم به غيرهم ، ولكنى ثابت على خطتى حتى الممات ، لأن اعتقادى أن ثمر الدفاع وإن لم يجنه المدافع الأول أو الثانى فلسوف يجنيه مصرى على مدى الأيام ، وأننا إذ لم نقتطف ثمر عملنا وجهادنا فى حياتنا ، فإننا على الأقل نضع الحجر الأول لمن يبنى بعدنا » .

ولقد صدقت نبوءة مصطفى كامل ، إذ استطاعت مصر ، بعد كفاح طويل مرير ، وبعد قيام ثورة ٢٣ يولية سنة ١٩٥٢ أن تطرد المستعمرين الباغين ، وأن تتحرر من كل ألوان التسلط والاستغلال وأن تتبوأ مكانتها اللائقة بين دول العالم .

كتبت مدام جولييت آدم كثيراً عن حادثة فاشودة ، ومنه قولها فى مقالة لها فى فبراير سنة ١٩٠٤عن أخطاء السياسة الفرنسية : « فاشودة ! إنها الضربة القاضية ! فقد قلت فى رسائلى قبلا أن غير واحد من ساسة فرنسا قد أفهم الخديوى والوطنيين المصريين أن فرنسا ستتدخل لصالح مصر سريعاً وبصفة حاسمة ، وأبانوا لهم أن بعثة مارشان هى الحاملة لراية استقلال مصر . فصاروا جميعاً يعتقدون أن تحرير وطنهم سيأتى من السودان . ولكن حادثة فاشودة قضت على آمال الوطنيين المصريين » .

إن لموضوع فاشودة أهمية كبيرة من الناحية الاستعمارية العامة ، ومن ناحية ارتباطه الوثيق بالمسألة المصرية ومسألة وادى النيل . وأصبح اسم فاشودة ، هذه القرية الصغيرة على النيل الأبيض ، علما بين وقائع التاريخ العالمى المعاصر ، ورمزاً لمنتهى ما وصلت إليه المنافسة الاستعمارية بين انجلترا وفرنسا ، ودليلا على ما كانت تستطيعه القوة البحرية من الفصل الحاسم فى الأمور والأزمات الدولية ، ونهاية عملية حقيقية لموقف المعارضة القوية الذى وقفته فرنسا بإزاء الاحتلال البريطانى لمصر . ولذا فموضوع فاشودة لهم من حيث التاريخ الدولى العالمى ، ولكنه يهم أبناء وادى النيل بصفة خاصة لما كان له من أثر فى تقوية دعائم النفوذ الإنجليزى فى هذا الوادى .

ولقد ظلت دراسة ذلك الموضوع من الناحية السياسية إلى السنوات القليلة الماضية قائمة على ما كتبه المعاصرون ، وما خلفه الذين اشتركوا فى مغامرة فاشودة من أمثال مارشان وكتشنر . ولذا كانت دراسة ذلك الموضوع من الناحية التاريخية العلمية دراسة مشوهة ناقصة ؛ يظهر فيها روح التحيز القومى وتمجيد الوطن ؛ سواء أكانت هذه الدراسة إنجليزية أم فرنسية ، فهى دائماً تميل ناحية معينة ، وإن كانت كلها لا تستطيع إخفاء النهاية التى انتهت إليها حادثة فاشودة بانتصار السياسة الإنجليزية وإذلال فرنسا .

على إبراهيم عبده